

الألوان في القرآن بلاغةً وبيان

أ.م.د. هناء عبد الجبار الدوري

أ.م.د. ثائر غازي الشمري

كلية الامام الأعظم (الجامعة)

كلية العلوم الاسلامية / الجامعة العراقية

ملخص البحث:

للألوان تأثيراتها المختلفة، وهذا البحث يرتبط بالألوان في حدود التعبير القرآني، إذ ضمت الكثير من الآيات مختلف الألوان التي جاءت للتعبير عن دلالات مختلفة .

وقد اعتمد البحث منهجاً تحليلية لبعض هذه الآيات على سبيل الاختيار مع عرض دلالات الألوان في الآيات الأخرى ضمن جدول النتائج، وقد بدا للبحث جملة من دلالات اللون في التعبير القرآني، منها أن اللون يرتبط بدلالة معينة على وفق السياق الذي يرد فيه والمعنى الذي يؤديه، فاللون الأصفر جاء مرة لإدخال السرور إلى نفس الناظر ، ومرة للتعبير عن الإفساد والدمار والفناء ، وثالثة للون حمم النار ، وهكذا الأبيض للتعبير عن وجوه أهل السعادة يوم القيامة حيناً ، وعن ذهاب سواد العين حزناً حيناً آخر، وهكذا الأسود عن الحزن والندم والخسران، والأخضر للجنة ولباس أهلها وللخصب والأمل والنمو، وغير ذلك من الدلالات المختلفة .

وتضمن المبحث الأول الحديث عن اللون المباشر في القرآن الكريم، وتناول الثاني اللون غير المباشر، وعلى محاور ثلاثة في كل منهما ، وأثبتنا أن اللون وسيلة مهمة من وسائل التعبير، ولا يزال كنزاً مخبوءاً يحتاج للبحث والاستقراء والتحليل مع إمكانية دراسته من نواحي أخرى لغوية ونفسية واجتماعية وطبية، ذلك أن اللون في القرآن متغلغل في ثنايا الأبيات، ويعد ظاهرة فريدة من مظاهر التعبير الفني والجمالي، وحلية لفظية متناسقة في النص لتؤدي وظائف مهمة إلى جانب الوظائف التعبيرية التي حل بها القرآن الكريم.



Abstract

The colors of the different colors, and this research is linked to colors within the limits of the Koranic expression, as many verses included different colors that came to express different indications.

The research has adopted an analytical approach to some of these verses as a choice with the presentation of color indications in the other verses in the results table. The research seems to have a number of color indications in the Quranic expression, such that color is related to a particular meaning according to the context in which it is presented and the meaning, Yellow once came to introduce the pleasure to the same beholder, once to express the corruption, destruction and annihilation, the third color of fire lava, so white to express the faces of the happy people on the Day of Resurrection, Its people and fertile Hope and growth, and other different connotations.

The research has shown that color is an important means of expression, and it remains a hidden treasure that needs research, extrapolation and analysis with the possibility of studying it in other linguistic, psychological and social aspects. It is a unique phenomenon of artistic and aesthetic expression, and a coherent verbal formula in the text to perform important functions alongside the expressive functions of the Holy Qur'a.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله الطيبين، ومن والاه ..
اللون في القرآن الكريم فإنه يشكل ظاهرة ملفتة للنظر، ويضع الإنسان أمام واجهة واسعة حيث تغدو الألوان بمثابة مظهر تزييني احتفالي تعكس أسرار الوجود والبقاء والماء والخصب لتحقيق للعين لذة وللنفس راحة، وتحقق أحياناً حزناً وخوف ورهبة، وهي في كل ذلك تحديث استجابة نفسية بشعور ما يحرك عواطف الانسان ووجدانه ، فاللون جزء مهم وحيوي يضيف على كل مشهد دلالات كثيرة، فالله لم يخلق الكون لوناً واحداً .

أهمية البحث:

بما أنّ لموضوع اللون ارتباط وثيق بالحياة والدنيا والآخرة، ولم يُشبع درساً وبحثاً، ولا سيما في البلاغة القرآنية؛ لذا كان اختياري له في هذا البحث على سبيل المنهج التحليلي للآيات التي يذكر فيها اللون، وعلى سبيل الانتهاء منها لكثرتها مع دراسة الآيات الأخرى واستنباط دلالاتها،

خطة البحث:

وقد اقتضت طبيعة مادة البحث وحجمه أن ينتظم في مبحثين بعد تمهيد تناولت فيه اللون لغةً واصطلاحاً وما أورده أهل البلاغة عن معانيه وشواهد، وكذلك تناولت الحديث عن الألوان ووظائفها ودلالاتها لارتباطها بالتدريج .

أما المبحث الأول فقد تضمن اللون المباشر في القرآن في قصص الأنبياء، وفي الحياة الدنيا، وفي مشاهد القيامة .

وتضمن المبحث الثاني اللون غير المباشر في آيات هذه المحاور الثلاثة أيضاً.

ثم خاتمة متبوعة بجدول حوى أهم دلالات اللون في القرآن الكريم .

تمهيد:

بعد اللون وسيلة مهمة من وسائل التعبير والفهم، وقد دلت التجارب والبحوث على أنه لا يزال كنزاً م ، وأنه قوة موجبة تؤثر في جهازنا العصبي (١) .

وللون قيمة كبيرة في التعبير الأدبي، سواء كان محصلاً بصورة مباشرة من المفردات أو يتداعى منها في صورة غير مباشرة، لا تقل أهميته عن العناصر الأساسية الأخرى (٢).

واعتنى العرب كثيراً بالألوان ، وهذا واضح على السنة خطبائها وعلمائها وشعرائها على مرّ العصور حتى بات موضوع الألوان من الموضوعات التي تفرد لها أبواب خاصة في مصنفات اللغويين المشهورين ، فقد كان للألوان في المؤلفات التراثية صدق واضح وأثر كبير، من ذلك ما قاله ابن الأعرابي في كتابه (أسماء خيل العرب وفرسانها)، وكتاب (خلق الانسان) لأبي محمد ثابت بن أبي ثابت ، وكتاب (فقه اللغة وسر العربية) لأبي منصور الثعالبي ، وكتاب (المخصص) لابن سيده ، وكتاب (الملمع) لأبي عبد الله الحسين علي النمري (٣).

واللون عند العرب المسلمين لا يخلو من مدلول فلسفي ونفسي وجمالي، وقد جاعت الألوان في القرآن لتحقيق موصوفات معينة، إذ يحتلّ اللون في الصورة التعبيرية مساحة نفسية واعتبارية أساسية غير شكلية ولا هي مُفضلة مما يمكن الاستغناء عنه بدون حضور الفعل اللوني؛ ذلك أن اللون ودلالته قد ارتبطا بمعانٍ ورموز عند العربي واستخدمت قوة تأثيرها الرمزي في القيم الروحية عن طريق العادات والتقاليد ، فجاءت الألوان مرة على الحقيقة، وأخرى على سبيل الجانب المجازي ، وأحياناً شعاراً أو رمزاً لشيء معين (٤) .

المبحث الأول

ذكر اللون بصورة مباشرة في القرآن الكريم

أولاً: الحياة الدنيا:

ورد التعبير في آيات كثيرة ليعبر بصورة مباشرة من معان كثيرة تتعلق بالحياة الدنيا ، من ذلك تأويل يوسف (عليه السلام) للسنبلات الخضر التي رآهن فرعون بالسنين المخصبات في قوله تعالى : ﴿يُوشَعُ أَبْنَاءُ الصِّدِّيقِ أَفْتِنَا فِي سَعْيِ بَقَرَاتِ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَعْيٌ عَجَافٌ وَسَعْيٌ سُبُكَّتْ خُضِرٌ وَأُخْرَى يَاسِدَتٌ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٦)، ومن ذلك التعبير باللون الأخضر عن معنى الخصب في قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ (٧) فهو هنا الزرع الأخضر ، وغالبا ما يُعبر باللون الأخضر عن الخصب والنماء والري والنعمومة في الحياة الدنيا فاللون الأخضر لون التفاؤل وارتياح النظر ، لا يصيب مشاهدته بالكآبة والضيق، وإنما يضيف عليه راحة وجمالا؛ لذلك اختير لما يلبسه أهل الجنة (٨) .

وفي آية أخرى يذكر اللون الأخضر على سبيل الكناية اللونية في قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (٩) ، فالشجر الأخضر الذي يصبح حطباً للنار هو من آيات خلق الله وعظمته، فهو بوصفه الأخضر يعني أنه رطب يسري الماء في أو عينه وتجاويفه ، ولكن بقدرة الله يتحول إلى حالة أخرى بعد جفافه ليصبح ناراً.

والكناية باللون الأخضر تشير إلى الحياة المنبثقة من أعماق التربة الميتة (١٠) ، فاللون الأخضر قد ورد في الآية بصورة حسية مشاهدة يستدل بها القرآن على إمكان البعث والنشور لأجل الحساب والجزاء .

لقد جاءت الكناية هنا في سياق إنكار البعث بعد الموت في ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (١١) والذي سوغ هذا التركيب كناية لونية طبيعة الأسلوب الكناني الذي يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، فالمعنى القريب للكناية إبراز الشيء من ضده وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر ، فالماء يطفئ النار لكنها خرجت مما هو مشتمل عليه (١٢) .

والمعنى الآخر هو قدرته تعالى على إحياء العظام المالية وإعادتها خلقا جديدا (١٣) فالتعبير الكنائي قائم على التضاد ، فالتضاد من شأنه أن يجلي المعنى المكنى عنه في أعمق صورة ، فالشجر الأخضر بما فيه من رواء وماء هو نقيض (النار)، وما تعرضه الكناية هو حالة محسوسة مشاهدة في صورتها ومعناها لكنها تشير إلى المعنى البعيد المكنى عنه وهو إخراج الحياة من الموت ، وهكذا يقرب القرآن إلى الأذهان

حقيقة البعث والنشور فهو يجعل من هذه المحسوسات في الطبيعة القرآنية شاخصا للعيان يستدل بها على أنهم سيبعثون، وأنهم سيحاسبون على ما يقتربون (١٤) .

ويأتي اللون الأصفر في عالم النبات أيضا في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَهَيِّجُ فَرَخَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْمًا﴾ (١٥) ، فسياق الآية كاملا يمثل حقيقتين : الحياة المتجددة في أزهى صورها وبريقها وألوانها المختلفة ، وحقيقة الموت والفناء في صورة حية مشهودة تتلاها العين ويحسها الفكر والوجدان (١٦) ، وفي ورود الألوان المختلفة في الزرع تنكير لأولي الأبواب من الناس للتفكر في خلق الله ، فالزرع الأخضر الهائج استوى على سوقه أصفر ، جعله الله حطاماً بعد نضرة وهياج يسر الناظرين (١٧) ، وقد جاء اللون الأصفر في الأمة كناية عن الموت المرتبط بالزرع في كل هيئاته وأشكاله وألوانه بعد تحوله من ذروة الحياة في تشكيلها الجمالي إلى الموت ، أما المعنى الآخر لهذه الكناية فقد قال عنه ابن كثير : هكذا الدنيا تكون خضرة نضرة حسناء ، ثم تعود عجوزا شوهاء والشباب يعود شيخاً هرمًا كبيرة ضعيفة وبعد ذلك كله الموت (١٨) ، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون متحطم الأعضاء منكسراً كالزرع بعد نضرتة، ثم تكون عاقبته الموت .

أما اللون الأسود فهو لون آخر من التصوير القرآني، إذ يوصف به من يبشر بالأنثى فهو حزين ومغمم ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٩) فقد تواشجت الكفاية اللونية بالاستعارة التصريحية (كظيم) فهي كناية عن الغم والحزن ، فالعرب تقول لكل من لقي مكروها أنه قد اسودَّ وجهه (٢٠) ، فهو يغالب ثورة من الحزن والضيق يكتم غيظه ويداريه ، فالكناية باللون الأسود تكثيف للحالة النفسية للذي يبشر بالأنثى، ولا شك في أن الكناية فيها سخرية لاذعة وهي تصور هذا الشخص مسود الوجه متواريا عن الناس ، مغالبا لصراع رهيب في نفسه من مجرد أن يبشر بولادة بنت له (٢١) ، ويتجلى أيضا هوان المرأة وما تلاقيه من تعسف وظلم في المجتمع وفيها دلالة على تبشيع هذه العادة الجاهلية وتفظيعها .

ثانياً: قصص الأنبياء:

ورد ذكر اللون الأبيض في قصص الأنبياء في القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (٢٢) ، والنزع إخراج الشيء من مكانه، أي أخرجها من جيبه أو من جناحه، فكان لها نورٌ ساطعٌ يضيء ما بين السماء والأرض ، وقوله ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ يتعلق بـ ﴿بَيْضَاءُ﴾ أي؛ فهي بيضاء

للناظرة، ولا تكون كذلك إلا إذا كان بياضها بياضاً عجباً خارجاً عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب (٢٣) .

وتذكر القصة في موضع آخر نفس الحدث وبصيغة أخرى قال تعالى : ﴿وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (٢٤) أي تخرج بياضاً من غير برص نوراً ساطعاً (٢٥) .

في قوله تعالى : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ نكتة بلاغية تتمثل بفنّ الاحتراس، فهو احتراس من أن يفهم البياض في اليد أنه برص أو أنه السحر أو أي شيء آخر، فنفي توهم من يتوهم أو غيره ، لإثبات أن اللون الأبيض هنا إنما هو معجزة خارجة لما كانوا يدعون من السحر .

وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ﴾ (٢٦) وقال في سورة النمل : ﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ﴾ (٢٧) ، وسبب المغايرة بين الفعلين هو تردّد سلوك الأمانة والسبل في سورة القصص، فقد ذكر سلوك الصندوق بموسى، وسلوك أخته وهي تقصن أثره، وسلوك موسى الطريق إلى مدين بعد فراره من مصر، وسلوكه السبيل إلى العبد الصالح في مدين ، وسير موسى بأهله وسلوكه الطريق إلى مصر، ولكنه لم يذكر في سورة النمل شيئاً من ذلك السلوك والسير ، أما الفعل (دخل) فقد تكرر خمس مرات في سورة النمل (٢٨) ، ولم يرد هذا الفعل ولا شيء من مشتقاته في سورة القصص ، فضلاً عن أن الإدخال أخص من السلك أو السلوك؛ لأن السلوك قد يكون إدخالاً وغير إدخال ، تقول : سلكت الطريق وسلكت المكان ، أي سرت فيه ، وتقول : سلكت الخيط من المخيط أي : أدخلته فيه فالإدخال أخص وأشق من السلوك ، فالسلك قد يكون سهلاً ميسوراً ، قال تعالى : ﴿فَاسْأَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ (٢٩) ، فقد ذكر ﴿ذُلًّا﴾ ليدل على سهولته ويسره ، ولقد تاسب الإدخال أن يوضع مع ذكر مهمة التبليغ إلى فرعون وقومه ، فناسب كل لفظ مقامه (٣٠) .

لقد كان اللون الأبيض في الآية أثر في الآخرين بوصفه معجزة خارقة وكان الأثر النفسي للبياض هو دليل قاطع على صدق النبوة وترسيخ هذه الحقيقة في عقول مشاهدي هذه اليد البيضاء ، ولما كان اللون الأبيض على مرّ العصور يمثل النقاء والصفاء والصدق والأمانة والسلام والخير بشكل عام ، فعبّر عن كل ذلك باختيار الخالق جل وعلا لهذا اللون في هذه الحادثة ليوحي إلى قوم فرعون أنه صادق وتتمثل فيه كل صفات الخير، فضلاً عما في ذلك من الاعجاز الذي جاء متناسباً مع ما كان سائداً عندهم وهو السحر ، فقد غلب بهذه المعجزة كل سحرهم.

وإذا كان اللون الأبيض - في الآية السابقة - دليل إعجاز ومدعاة لاجتماع الناس للنظر إليه ، فإنه في آية أخرى يعبر عن الحزن وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسُفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٣١) .

فبعد وصف حال يعقوب (عليه السلام) (تولى) التي توحى أو تقتضي الاختلاء بالنفس ذكر من أحول تجدد أسفه على يوسف (عليه السلام) نداء الأسف على سبيل المجاز أو التشخيص، إذ نزل الأسف منزلة من يعقل، وأضاف الأسف إلى ضمير نفسه ذلك أن الأسف حسرة معها غضب أو غيظ ، والأسف هو الغضب المستلهم على الشيء فهو مزيج من إظهار الألم والحسرة والاستعطاف، مع ما في داخله من غضب وحظ على ما فعلوه (٣٢) .

ولا يخفى الجنس المشابه بين لفظتي (الأسف) و (يوسف) مما يقع مطبوعاً فيملح ويعذب ، أما اللون الأبيض في الآية فجاء ذكره هنا للتعبير عن ضعف البصر، وظاهره أنه تبدل لون سوادهما من الهزل مع ذكر السبب بقوله (من الحزن) ، فقوله (وابيضت عيناه) كناية عن عدم الإبصار (٣٣) .

وهكذا جاء اللون الأبيض على غير معناه المتداول بأنه لون جميل يصور البهجة والبشرى ، فهو هنا صور حزنة بالكية مكانها عينا يعقوب (عليه السلام) ولا سيما أن الفعل (وابيضت) قد أسند إلى العينين على سبيل المجاز العقلي الذي يوحي بأن يعقوب (عليه السلام) بعد فقده لإبنه تمتى أن لا ترى عيناه أحداً بعدهما، وهكذا تتماشى الألوان مع الكناية والمجاز العقلي في هذه الآية ، كما أن السياق هو الذي حد معنى اللون هنا .

ثالثاً : مشاهد القيامة

ومن مشاهد التعبير باللون هو ما يعبر عنه اللون يوم القيامة، فينقلب اللون الأبيض واللون الأسود في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (١٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) (٣٤) فهذه الإشارة الكنائية تطوي معاني وإحياءات وهي تعلق الوجوه، فتشير إليها دون وسائط بين المكنى به (اللون الأبيض) والمكنى عنه (حال المؤمنين هناك) والمكنى به (اللون الأسود) والمكنى عنه (حال الكافرين هناك) (٣٥) ، فضلاً عما في ذلك من تشويق وترهيب.

ومن هنا ننقل إلى استقرار كل فريق في مكانه ، ونبدأ بأهل الجنة ، ليدخل اللون في وصف حالهم في قوله تعالى : ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۖ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) ، إذ جاء اللون هنا صفة للكأس ، وقيل للخمر فهي أشد بياضا من اللبن ، ذات لذة ولا تذهب بعقولهم) ، وقد جرى تأنيث الوصف تبعاً للتعبير عن الخمر بكلمة كأس ، على أن اسم الخمر يذكر ويؤنث وتأنثها أكثر (٣٧) .

ومن الترخيب أيضاً قوله تعالى في وصف ما أعد لهم في الجنة : ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۚ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٤٩) فهو وصف لركة نساء الجنة جاء على سبيل التشبيه ، والبيض المكنون هو بيض النعام ، والنعام يكن بيضة في حُفر في الرمل ويفرش لها من دقيق ريشه ، فيكون البيض شديد اللمعان وهو أبيض مشوب بياضه بصفرة وذلك أحسن ألوان النساء ، وقديماً شَبَّهوا الحسان ببيض النعام (٣٩) .

قال امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤهاتمتعت من لهُو بها غير معجل (٤٠)

وفي وصف ثياب أهل الجنة يدخل اللون الأخضر ، ولهذا اللون بعدٌ جمالي يتجلى من خلال ارتباطه بالحقول والحدائق والأشجار ، وهذا الارتباط يشير إلى الخصب والرزق ولذلك جاء من الألوان التعليم في الجنة في قوله تعالى : ﴿يَحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (٤١) .

اللون الأخضر هنا يمكن عدّه كناية تشير إلى معناها المكنى عنه البعيد ويتمثل في الخلود، أي خلودهم في جنات النعيم لكرامتهم على الله تعالى الذين أخلصوا له فأكرمهم بالنعيم الدائم، فهو لون يشير إلى النعيم المادي والروحي سواء (٤٢) ، واللون الأخضر هنا جزء من الترخيب، إذ هو أحد الألوان إلى البشر، فهو لون الحقول والغابات والحدائق ، وهو لون الأمان والسلام ، فالناس يرمزون إلى السلام بغصن الزيتون الأخضر الدائم الخضرة (٤٣) ، فضلا عن أن اللون الأخضر أعدل الألوان وأنفعها عند البصر وكان من شعار الملوك (٤٤) .

وقد خص الله تعالى أهل الجنة بهذا اللون إذ هو موافق للبصر، ولأن البياض يبّد النظر ويؤلم ، والسواد يُذم ، والخضرة بين البياض والسواد (٤٥) .

المبحث الثاني

ذكر اللون بصورة غير مباشرة في القرآن الكريم

أولاً : الحياة الدنيا

تقلب الحياة الدنيا وتتحول من الحياة إلى الموت، والحياة البشرية هي المعادل الإنساني لعالم النبات ، ذلك أن الإنسان يولد، ولكن ما يلبث بعد رحلة تطول أو تقصر أن يذبل ويغيب ثانية في قلب التراب، فالموت هو النهاية، واللون الأصفر في الغالب علامتها، بل إن القرآن يختزل هذا الزمان اختزالاً فلا يبقى بين الحياة والموت أيما فاصل زمني ، نقرأ ذلك في كناية لونية تأتي في سياق النبات في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾﴾^(٤٦) ، أي؛ فصيره بعد الخضرة أسوداً بالياً بعد أن كان ناظراً زاهياً^(٤٧) ، والكناية تتجلى في ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾﴾ والأحوى هو اللون الأسود الذي ينتهي إليه المرعى عند موته، ولعل من دلالات اللون هنا وإيثار السواد أن يزهد الإنسان في كل ما هو زائل، ومنتهي في الحياة مهما كانت لذته وجماله ، فتتحقق التخلية وتتجه النفس إلى الحياة الأبدية بالوانها الزاهية في جنات الخلد، فضلاً عن أن السواد هنا لم يكن تعبيراً عن كثافة الظلال والخضرة وإنما كان نهاية ولا سيما أنه وصف ب (الأحوى) وهو البالي ، بل الذي وصل إلى شدة بلائه وانتهائه، ولذلك جاء على سبيل وزن اسم التفضيل فكان ذلك مدعاة للعبارة والعظة عبر ذكر اللون ، ولا سيما باستخدام حرف العطف (الفاء) لعطف ما يحصل فيه حكم المعطوف بعد زمن قريب من زمن حصول المعطوف عليه^(٤٨) ، فلا يبقى في مدى الرؤية غير الموت الذي يكتسح الحياة ، فالمعنى الكنائي البعيد لهذه الصورة الموحية هو سرعة زول الحياة الدنيا التي يغتر بها الإنسان ويؤثرها على الحياة الباقية ، وهذا المعنى المكنى عنه يتسق مع جو السورة، والحديث عن الحياة الدنيا والحياة الآخرة ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾^(٤٩) .

ثانياً : قصص الأنبياء:

إن كلمتي (الظلمة والنور) تدلّان على اللون ثانوية بحسب السياق، فالظلمة تدلّ على لون معتم أسود، والنور من الألوان المشرقة التي تدخل البهجة إلى النفوس ، والإنسان بطبعه يحب النور والضوء ويكره الظلمة والعممة، وقد ورنّت هاتان المفردتان في التعبير القرآني كثيرا ، نذكر منها : ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾^(٥٠) .

فاللون هنا جاء على سبيل الاستعارة التصريحية ، حيث استعيرت (الظلمات) للتعبير عن الكفر، واستعير النور للتعبير عن (الإيمان)^(٥١) ، فالقرآن لا يسلك هنا التعبير الذهني المجرد (الكفر والإيمان) وإنما

سلك التعبير الاستعاري المصور (الظلمات والنور) الموحى بدلالاته الحيوية النفسية والجامع بين (الظلمات والكفر) هو التيه وعدم الاهتداء والتبصر، والجامع بين (النور والإيمان) الهداية والتبصر، فاستعارة النور تصور طبيعة الإيمان وفعله الباني للحياة؛ لأنه يفتح منافذ الرؤية والبصيرة بكل جهاتها في الحياة، وقد جاء بصيغة المفرد بعكس صيغة الجمع في (الظلمات) مما يوحي بالنقيض في الطبيعة و الفعل ، كما أنه إحياء دقيق لمعنى الإيمان وجوهره الأصيل ، فالنور شيء واحد وإن تعددت مصادره ولكنه يكون قوياً ويكون ضعيفاً ، أما الظلمة فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام غير النيرة ، ويقابل ذلك أن الحق واحد لا يتعدّد ، والباطل الذي يقابله كثير متعدّد^(٥٢) ، وقد لا تدرك حقيقة (الظلمات) تماماً إلا بفهم كل صور الحياة المنحرفة التي عايشها الانسان قبل الاسلام وهي ظلمات كانت تسحق إنسانية الانسان وهي أثنى رصيد له، ولا يدرك النور إلا بفهم مدلوله الإنساني في شعور الانسان في مزاوله صور الحياة بهدي من هذا النور الإلهي ، فضلاً عن إحياء الظلمات بالموت، وإحياء النور بالحياة، وهكذا يشكل اللون أسلوباً بلاغياً وعنصراً مهماً من عناصر الدعوة القرآنية .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٥٣) الضياء : أعلى مرتبة من النور ، إذ كان كل ضياءٍ نوراً وليس كل نور ضياء^(٥٤) ، جاء في الفروق اللغوية أن الضياء ما يتخل الهواء من أجزاء النور فيبيض بذلك ، ولذلك يقال : ضياء النهار ولا يقال نور النهار ، والفرق أن الضوء ما كان منه ذات الشيء المضيء، والنور ما كان مستقداً من غيره، وقيل أن النور : الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار^(٥٥) ، وقد استعير (الضياء) للفرقان الذي هو مناراً لعقول المتقين وقلوبهم فهو الضياء الذي يرون من خلاله طريق الحق والهداية ، وتقدير (ضياء) للتعظيم وعلو المرتبة ، فهو سبب الهداية للناس على سبيل الاستعارة التصريحية، إذ له أثر في دعوة الأنبياء والمرسلين في شرح قلوب الناس للإيمان.

ثالثاً : مشاهد القيامة

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَتٌهَا غَبْرَةٌ ۚ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۚ ﴾ (٥٦) ، فهي ألوان غير مباشرة تبدو على (وجوه) هكذا بصيغة النكرة لتقيد التنوع ، وإسناد الضحك والاستبشار إلى الوجوه مجاز عقلي؛ لأن الوجوه محل ظهور الضحك ، والاستبشار ، فهو من إسناد الفعل إلى مكانه .

إنّ التقابل القائم على التضاد بين حال الفريقين هو الإطار الفني الذي يبرز المشهد ويكشف عن عميق المعاني والإيحاءات للألوان المتضادة التي تجسد الحالة النفسية لكل من الفريقين بما يرسم على الوجوه ، فالإسفار في وصف المؤمنين كناية عن تصور المؤمنين في هذه الصورة المشرقة في يتداعي لون مشرق من وجوههم، وقال الزمخشري : " أسفر الصباح : أضاء ، وخرجوا في السفر: في بياض الفجر ، ووجه مسفر : مشرق مسرور " (٥٧) ، فالإسفار يختص باللون (٥٨) ، وجاءت (مسفرة) بصيغة اسم الفاعل لتوحي بتمكن هذا الوصف منهم ، و (ضاحكة مستبشرة) بصيغة اسم الفاعل لتدلّ على الثبوت والدوام (٥٩) .

واللون المتداعي من إشراق وجوههم وإضاءتها في ذلك الموقف يمكن وصفه باللون الأبيض وهو من الألوان الناصعة الخالصة (٦٠) ، يعمل على تكثيف الحالة النفسية السروية المبهجة التي هم فيها ، ويشير إليها على نحو لا يمكن وصفها بالكلمات ، بل يتخيلها المتلقي ويتملاها ليدرك معناها وتأثيرها في حسه ووجدانه (٦١) ، وتقابلها الصورة القاتمة للكافرين في الكتابتين (غبرة) و (فترة) لتتشويه منظرهم بلونين منفرّين، فمن الأولى يتداعي لون الغبار، ومن الثانية يتداعي اللون الأسود إذ (الفترة) من القطار والقطر وهو الدخان (٦٢)

الخاتمة:

تعدّ ظاهرة اللون في القرآن الكريم من مظاهر الإعجاز في كتاب الله نظراً لما تقدمه للإنسان من دلالات نفسية ، وبما تثيره من مشاعر وأحاسيس تبعث على التفكير والتدبر، وهي بحاجة إلى مزيد من البحث والاستقصاء ، واللون نعمة كغيرها من النعم ، ووسيلة من وسائل التعبير والخطاب، واللون قوة موحية تؤثر في جهازنا العصبي فيبعث فرحة لا يُستهان بها عندما تراه، وهو شعر صامت نظمته بلاعة الطبيعة وبيانها.

لقد استوعبت اللغة دلالات اللون وتدرجاته وتبايناته المختلفة ، وتتبقى هذه الدلالات من التعبير القرآني في استخدام اللون للتعبير عن المعاني، ولم يكن ذكر اللون في القرآن على معناه اللغوي ، وإنما كان وسيلة من

وسائل التعبير عن الدلالات المختلفة في القرآن وطريقاً من طرق الدعوة القرآنية إلى التوحيد ، بالترغيب حيناً والترهيب حيناً آخر ، وقد بدا للبحث أنّ الألوان في القرآن الكريم جاءت لتؤدي دلالات متنوعة نوجزها في جدول بعد هذه الخاتمة ، وهذه الدلالات قد استنبطت من آيات كثيرة ورد فيها اللون المباشر وغير المباشر، ومنها ما لم يرد تحليله في صفحات البحث لصغر حجمه، ولكن إدراجها في الجدول يشير إلى استقراءنا لها وبحثنا في دلالاتها، علها تفتح آفاقاً واسعة للباحثين في دراسة هذه الظاهرة القرآنية من وجوه لغوية أخرى غير الوجه البلاغي .

المصادر والمراجع:

- ١- أساس البلاغة ، للزمخشري - أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م .
- ٢- أسلوب السخرية في القرآن، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٨م.
- ٣- الألوان في القرآن، عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٠م
- ٤- الألوان في معجم العربية، عبد الكريم خليفة، مطبعة أوفسيت الكندية، حلب، ١٩٨٣م.
- ٥- البحر المحيط (تفسير أبي حيان)- أبي حيان محمد بن يوسف (ت: ٧٥٤هـ)، مراجعة حنفي محمد جميل، دار الفكر ، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- ٦- التحرير والتنوير ، لابن عاشور - محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر ، تونس، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ هـ.
- ٧- التعبير عن اللون في الشعر القديم، وولف تريش فيشر، مجلة التربية والعلم، العدد/٨، ١٩٨٩م.
- ٨- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير - أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ) دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ٩- تفسير المنار، محمد رشيد بن علي الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م.
- ١٠- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي - رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (ت: ٦٨٦٨هـ) تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.
- ١١- جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) - أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير (ت : ٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- ١٢- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) - أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق أحمد عبد الحليم البردوني، دار الشعب ، القاهرة، ط٢، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م.

- ١٣- ديوان امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (ت: ٨٠ ق.هـ)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ١٤- صفوة التفاسير، للصابوني- محمد علي ، دار الصابوني ، القاهرة، ط١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.
- ١٥- الفروق اللغوية، للعسكري-أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت: ٤٠٠ هـ) مؤسسة الرسالة ، قم ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ١٦- علم البيان في الدراسات البلاغية، علي البدري، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٨٤م.
- ١٧- الكناية في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٥م.
- ١٨- اللغة واللون، أحمد مختار عمر، دار البحوث العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- ١٩- لمسات بيانية ، د. فاضل السامرائي، شركة العاتك، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م.
- ٢٠- اللون، محمد يوسف همام، مطبعة الاعتماد ، القاهرة، ط١، ١٩٧٠م.
- ٢١- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل السامرائي، دار الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
- ٢٢- مفاتيح الغيب المسمى التفسير الكبير (تفسير الرازي) - فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين (ت: ٦٠٦ هـ) قدم له الشيخ خليل الميس، دار الفكر ، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ٢٣- المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني- أبي القاسم الحسين بن محمد (ت: ٥٠٢ هـ) تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة ، بيروت.
- ٢٤- الملمع، أبو عبدالله الحسين بن علي النمري، تحقيق: وجيهة السطل، مطبعة زيد بن ثابت ، دمشق، ١٩٧٦م.

المجلات والبحوث:

- ١- اللون في القرآن الكريم ، أسماء وليد حمدون ، بحث منشور في مجلة الدراسات التربوية ، بغداد، العدد/ ٣ ، ٢٠٠٨م.

(١) ينظر: اللون، محمد يوسف همام، مطبعة الاعتماد ، القاهرة، ط١، ١٩٧٠م:ص/١، واللغة واللون، أحمد مختار عمر، دار البحوث العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م: ص/١٤٨.

(٢) ينظر: التعبير عن اللون في الشعر القديم، وولف تريش فيشر، مجلة التربية والعلم، العدد/٨، ١٩٨٩م: ص/١١.

(٣) ينظر: الألوان في معجم العربية، عبد الكريم خليفة، مطبعة أوفسيت الكندية، حلب، ١٩٨٣م: ص/٢٨.

(٥) ينظر: اللون في القرآن الكريم ، أسماء وليد حمدون ، بحث منشور في مجلة الدراسات التربوية ، بغداد، العدد/ ٣ ، ٢٠٠٨م: ص/٦٤.

(٦) سورة يوسف، الآية/٤٦.

(٧) سورة الأنعام ، من الآية/٩٩.

- (٨) ينظر: الألوان في القرآن، عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٠م: ص/١٢٣.
- (٩) سورة يس، الآية/٨٠.
- (١٠) ينظر: الكناية في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٥م: ص/١١٥.
- (١١) سورة يس، من الآية/٨٠.
- (١٢) ينظر: البحر المحيط (تفسير أبي حيان) - أبي حيان محمد بن يوسف (ت: ٧٥٤هـ)، مراجعة حنفي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م: ٣٤٨/٧.
- (١٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) - أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير (ت: ٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م: ٢٣/٢١-٢٢.
- (١٤) ينظر: الطيبة في القرآن الكريم، كاسد ياسر الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م: ص/١١٩.
- (١٥) سورة الزمر، من الآية/٢٩.
- (١٦) ينظر: الكناية في القرآن الكريم: ص/١١٩.
- (١٧) ينظر: الألوان في القرآن: ص/٧.
- (١٨) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير - أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ) دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م: ٤/٥٠.
- (١٩) سورة النحل، الآية/٥٨.
- (٢٠) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) - أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق أحمد عبد الحلیم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط٢، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م: ١٠/١١٦.
- (٢١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن، عبد الحلیم حفي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٨م: ص/١٧١.
- (٢٢) سورة الأعراف، الآية/١٠٨.
- (٢٣) ينظر: مفاتيح الغيب المسمى التفسير الكبير (تفسير الرازي) - فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين (ت: ٦٠٦هـ) قدم له الشيخ خليل الميس، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م: ١٤/١٩٦.
- (٢٤) سورة طه، الآية/٢٢.
- (٢٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٧/١٦٤.
- (٢٦) سورة القصص، من الآية/٣٢.
- (٢٧) سورة النمل، من الآية/١٣.
- (٢٨) الآيات (١٢، ١٨، ١٩، ٣٤، ٤٤) من سورة النمل.
- (٢٩) سورة النحل، من الآية/٦٩.
- (٣٠) ينظر: لمسات بيانية، د. فاضل السامرائي، شركة العاتك، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م: ص/٩٠.
- (٣١) سورة يوسف، الآية/٨٤.
- (٣٢) ينظر: الفروق اللغوية، للعسكري - أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت: ٤٠٠هـ) مؤسسة الرسالة، قم ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م: ٢٨٣.
- (٣٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور - محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر، تونس، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤هـ: ٧/٣٨٥.
- (٣٤) سورة آل عمران، الآيات/ ١٠٦-١٠٧.
- (٣٥) ينظر: علم البيان في الدراسات البلاغية، علي البدري، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٨٤م: ص/٢٨٠.
- (٣٦) سورة الصافات، الآيات/ ٤٦-٤٧.

- (٣٧) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١١٢/١٢.
- (٣٨) سورة الصافات، الآيتان/٤٨-٤٩.
- (٣٩) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١١١/١٢.
- (٤٠) البيت من الطويل، قافية اللام. ديوان امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (ت: ٨٠ق.هـ)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م: ص/١٣.
- (٤١) سورة الكهف، من الآية/٣١.
- (٤٢) ينظر: الكناية في القرآن الكريم: ص/١١٧.
- (٤٣) ينظر: الألوان في القرآن: ص/١٠٩.
- (٤٤) المصدر نفسه: ص/١١٥.
- (٤٥) المصدر نفسه.
- (٤٦) سورة الأعلى، الآيتان: ٤-٥.
- (٤٧) ينظر: صفوة التفاسير، للصابوني- محمد علي، دار الصابوني، القاهرة، ط١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م: ٥٤٨/٣.
- (٤٨) ينظر: التحرير والتنوير: ٢١٦/١٦.
- (٤٩) سورة الأعلى، الآيتان/١٦-١٧.
- (٥٠) سورة إبراهيم، الآية/١.
- (٥١) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي- رضي الدين محمد بن الحسن الاسترأبادي (ت: ٦٨٦هـ) تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م: ص/١٢١.
- (٥٢) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد بن علي الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م: ٢٩٤/٧.
- (٥٣) سورة الأنبياء، الآية/٤٨.
- (٥٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني- أبي القاسم الحسين بن محمد (ت: ٥٠٢هـ) تحقيق محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت: ٧٥/١.
- (٥٥) ينظر: الفروق اللغوية: ٣٣٢-٣٣٣.
- (٥٦) سورة عبس، الآيات/٣٨-٤٢.
- (٥٧) أساس البلاغة، للزمخشري - أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م: ص/٢١٢.
- (٥٨) ينظر: المفردات: ص/٣٤١.
- (٥٩) ينظر: معاني الأبنية في العربية، د. فاضل السامرائي، دار الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨١م: ص/٤٧.
- (٦٠) ينظر: الملمع، أبو عبد الله الحسين بن علي النمري، تحقيق: وجيهة السطل، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦م: ص/٨.
- (٦١) ينظر: الكناية في القرآن الكريم: ص/١٢٣.
- (٦٢) ينظر: المفردات: ص/٥٩٣.